كبير العائلة

بقلم : موسى صبري

خطاب انور السادات امام مجلس الشعب، هو حديث الناس فى كل لقاء، وهو من اهم البيانات الرسمية التى ادلى بها رئيس الدولة ، لانه يقدم كشف حساب عن السنوات الخمس الماضية ، ويعرض سياسة الدولة فى المرحلة المقبلة ، التى ستجرى فيها الانتخابات النيابية ، ثم تسمية رئيس الجمهورية فى مجلس الشعب الجديد، ثم الاستفتاء الشعبى عليه .. ويواكب ذلك اختيار وزارة جديدة من منبر الغالبية .

• • •

والناس لاشك مرحبة بالديموقراطيه داخليا ، وبدعم التضامن عربيا ، وبروابطنا الجديدة عالميا ، وبوضع النقط على الحروف فى علاقاتنا بالاتحاد السوفيتى . وعلى المسرح الديموقراطى الداخلى ، حدد رئيس الدولة اختصاص مختلف السلطات .واعلن ان الصحافة سلطة لن تكون مملوكة لفرد ، وانه لا تراجع عن الحرية السياسية .

ولم يخلق بعد الزعيم الذى يستطيع ان يرضى كل الناس . والزعامة موقع سياسى ، يفرض بطبيعته الخلاف فى الراى ، ومسئوليات القيادة تفرض على القائد ان يحمى مسيرة الامة ، من الاطماع السياسية التى تعطل هذه المسيرة، أو لاتتفق مع اهدافها وآمالها. ولذلك فمن الطبيعى ان نسمع آراء تمثل اقلية ، لها اهداف اخرى ، غير الاهداف التى تتبناها الغالبية وترضى بها وتدافع عنها .

• • •

ولكننا نسمع بعض الآراء الملتوية التى تخرج تفسيرات ، من كلمات الرئيس ، لايمكن أن تتفق مع السياسة العامة التى اعلنها بكل الوضوح والجلاء.

ومن ذلك القول ، ان انور السادات، اراد ان يعطى منصب رئيس الجمهوريه حصانة كاملة من اى نقد ، او اى خلاف فى الراى ، او اى مناقشة للسياسة العامة ، عندما قال ان رئيس الجمهورية ، هو الحكم ، الذى يؤدى دور رب العائلة . ويقول التفسير الملتوى ، ان رب العائلة فى مصر ، غير قابل للنقد من ابناء العائلة .وانه يأمر ويطاع . وهذا هو حكم الفرد !!

نعم .. هنالك من يروج لهذا التفسير، لكى ينتهى الى القول ، ان انور السادات يريد حكم الفرد ، مغلفا بحديث عن الديموقراطية والحرية والمؤسسات الدستورية ..

• • •

وكان من الممكن ، ألا اعرض لهذا التفسير الملتوى ، وان اتجاهله .ولكننا نعيش اياما اقوى من ان تتجاهل اية نزعة الى التشويه ، مهما كانت محدودة او عديمه الاثر . ان هذا التفسير الملتوى ، يتجاهل ان رئيس الجمهورية ، هو الذى تحدث فى نفس الخطاب عن التزامه بالدستور الدائم، قانون القوانين ، الملزم بالاحترام والتقديس ، لكل مواطن ، المحدد لمسئوليات والتزامات رئيس الجمهورية، وكل المؤسسات الدستورية ، الذى ينص على اسلوب المحاسبة ، لكل موقع مسئول فى البلاد . والرجل الذى قدم لشعبه الدستور الدائم ، الذى يحدد كل السلطات والمسئوليات ، بعد ان حرمت مصر من هذا الاستقرار الشرعى سنوات طويلة ، ليس هو الرجل الذى يحتمى تحت شعار رب العائلة ساعيا الى حكم الفرد .

• • •

ان تمسك انور السادات ، بهذا التقليد المصرى القديم ، لم يظهر فى هذا الخطاب فقط . فقد نادى السادات بفكرة كبير الاسرة .. وكبير العائلة ، وهو يقضى على مراكز القوى ، وهو يغلق السجون والمعتقلات ، وهو يكرم الانسان المصرى بحمايته قانونا من اى مساس بكرامته وآدميته .. وهو يصون استقلال القضاء .. ان كل مبادىء ثورة ١٥ مايو ، اعلنها انور السادات كبير العائلة ، بمعناها المصرى الاصيل .. وكبير العائلة هو الذى يضحى من اجل ابنائها ، وهو الذى يرشد من يخطىء ، وهو حاميها من عاديات الزمن ، وهو اولا وقبل كل شىء ، الذى يجنبها الصراعات والتمزق والاقتتال حول الاطماع . وكبير العائلة له كل الاحترام والتوقير لانه يؤدى كل هذه المسئوليات .

لقد تمسك انور السادات بهذا التقليد المصرى الاصيل ، عندما التهبت الصراعات فى مجلس الثورة .. وتمسك بهذا التقليد عندما بدأت صراعات اخرى بعد انهاء مجلس الثورة .. واعلن التزامه بكل مسئوليات كبير العائلة عندما فجر ثورة ١٥ مايو ، وقضى على مراكز القوى ،ونادى بحكم المؤسسات .

• • •

ان كبير العائلة المصرية ، التى تكون كل فئات وطوائف وطبقات الشعب المصرى ، هو الذى ارتضى حكم قانون القوانين ، وابو التشريعات .. هو الذى ارتضى حكم دستور دائم، استفتى عليه العائلة كلها ،ليحدد لكل مواطن، ابتداء من رئيس الجمهورية ما له وما عليه .

قد لا يكون ((كبير العائله)) تعبيرا دستوريا . ولكنه تعبير مصرى صميم ، عن دعوة الحب - وطرد الاحقاد - التى ينادى بها انور السادات .

ودعوة الحب .. هى ليست ابدا ، ولن تكون ، دعوة حكم الفرد . دعوة الحب . هى دعوة العطاء ، والتآلف، والتكامل ، والشعور بالامن والامان . وكلها دعائم الوحدة الوطنية التى نخرها الحقد لسنوات طويلة ، فكانت الهزائم المتوالية .. عسكريا واقتصاديا وعربيا وعالميا .. وكانت العزلة .. وكان الشعور بعدم الانتماء .. وكان استشراء مراكز القوى .

• • •

كبير العائلة ، يريد لها ان تنمو .. يريد لها ان تستوثق من خطوها نحو البناء الديموقراطى ، ولو كان معنى كبير العائلة ، هو المعنى الملتوى الذى يردده بعض الخارجين على العائلة .. ويحاولون التأثير به على النوايا الطيبة .. فما كان أسهل ان يواجه مشكلات العائلة بقرار ادارى يصدره .. وكم قاسينا من القرارات التى كانت تحرر فى الظلام ، بعيدا عن رقابة الجماهير .

لقد اثار كبير العائلة فى خطابه ، ما رآه مهددا للتجربة الديموقراطية ، فى الممارسة النيابية والصحفية . اثاره وعرضه على الجماهير باستقامة كاملة ، وبغير التواء ، وقدم الحجة والدليل والبيان . ولو كان كبير العائلة يريد حكم الفرد ، لاكتفى بالقرار الذى يقصف الاقلام ، ويعزل النائب ، ويرهب من فى عقله رأى صالح من اجل مصر . ولكن كبير العائلة ، اشرك العائلة كلها فى الحكم على امر يهدد نجاح التجربة الديموقراطية ، واستمرارها ، ونقاءها .

طالب بالنقد والمحاسبة .. ولكن بالدليل لا بالافتعال والتشهير .

طالب العائلة ان تحمى نفسها ، من اطماع النفس .

طالب العائلة ان تكون رقيبة على من يخرج على العائلة .

هذا هو المعنى الديموقراطى ، للتعبير المصرى الاصيل ((كبير العائلة))

• • •

ان دستورنا قد اختار الجمهورية الرياسيه . واعطى رئيس الجمهورية حق رسم السياسة العامة للدولة ، ومتابعة تنفيذها بالاشتراك مع مجلس وزراء مسئول امام مجلس الشعب . رئيس الجمهورية اذن ، مشارك اول فى مسئولية تخضع للسؤال والاستجواب والنقد الصحفى . ولكن المساءلة الدستوريه . لسياسة الدولة ، واسلوب تنفيذها ، لا تعنى عبثا غير مسئول فى المساءلة ، ولا تعنى تجريح الذمم ، والتشهير .. انها تعنى الرقابة والمحاسبه ، التى تدعم الاستقرار . وتدعيم الاستقرار ، هو بكشف الاخطاء عن بينة وعن دليل .

ولا يوجد انسان فى مصر فوق القانون ..

ولكن يوجد ايضا فى مصر .. القانون الذى يحمى شرف الانسان وكل حرماته .

ولن تثرى التجربة الديموقراطية ، وتتحقق خطواتها برسوخ نحو المزيد من الديموقراطية الا بالتزام الصدق والحقيقة والمعاناة الجادة من اجل تقويم البناء .

وهكذا تزدهر العائلة ، وتتدعم روابطها ، ولا تسقط عنها راية الحب، وتكون قادرة على تقويم الشارد والمارق والمخرب والمشهر . وتكون بذلك اقوى تماسكا واعمق تحقيقا للوحدة الوطنية .

وهذا هو الفهم الواضح ، لروابط العائلة ، ومسئوليات كبير العائلة، الذى نكن له كل التوقير والاحترام ، بارادة حرة ، وبرأى سليم ، وبكرامة وعزة .

• • •

كبير العائلة ، منبع حب لا احقاد . موقع مسئوليه ، لا ارهاب سلطان . مثقلة اكتافه بالاعباء . فرض عليه القدر الشى صنوف المعاناة .. وهو يعبر بالعائلة .. الى بداية جديدة .. الى حكم الشرع والقانون بفريضة حب لا يتسع له الا قلب كبير .